

## الفصل السادس

### النقد الحديث كما يراه إليوت

في المحاضرة التي ألقاها إليوت في جامعة مانيسوتا بأمريكا سنة ١٩٥٦ تحت عنوان « حدود النقد »<sup>(١)</sup> أضاف عدة آراء للاتجاهات السالفة التي سبق أن أعلنها على صفحات الكتب والمجلات وفي المحاضرات العامة . لقد نوه أولاً إلى تغير اتجاهات النقد في الفترة الأخيرة منذ عصر الناقد الفذ كوليريدج<sup>(٢)</sup> إبان الحركة الرومانسية إلى وقتنا الحاضر . والسبب في ذلك مرده إلى تقدم العلوم الاجتماعية في السنوات الأخيرة وبخاصة في النصف قرن الماضي . ولقد انعكس هذا التقدم على أساليب النقد واتجاهاته . هذا إلى تأثير النقد أيضاً بالمنهج العلمي الذي خطا في القرن العشرين خطوات وثابة واسعة ، كما تأثر أيضاً بالدراسات النفسية التي انعكست بدورها على فروع الأدب والفن المختلفة . وأضاف إليوت إلى هذه الأسباب التي أدت إلى تشكيل قضايا النقد عدة مشاكل أخرى لا تقل عنها أهمية مما قد أدت إلى تحويل دفة النقد إلى وجهات جديدة وآفاق لم يسبق له أن طرقتها . وهذه القضايا الجديدة هي الصراع النفسي والحيرة الفكرية والقلق الذي انتاب الناس بعد أن فقدوا الثقة في القيم المختلفة ، فلم يعد هناك رادع أو وازع أو نقطة ارتكاز يستند إليها الباحث أو المفكر . ولهذا تشعبت فروع النقد لمحاولته طرق هذه الميادين الجديدة ، فأصبحت وظيفته هي الاستمتاع بالأدب وإعادة فهمه في عمق وإمعان ثم تفتيح الأذهان لما استجد من تفاعلات مع العلوم والفنون المختلفة . ولا يعني إليوت بالفهم الصحيح الإلمام بالكلمات والعبارات والتراكيب ، فقد فلم بها كلها دون أن نصل إلى أي مرحلة

من مراحل التقييم الجيد للنصوص الأدبية . ومعيار التقييم في نظر إليوت هو ما نحس به من متعة عميقة حيناً نقرأ نصاً من النصوص الجيدة ثم نستجيب لعظمته الفنية وقيمه الأدبية . ولا تتأتى هذه المزايا إلا على أساس الفهم السليم والاستجابة الصحيحة فهما عماد النقد المتكامل . إن نقص أحد هذه العناصر سيؤدي حتماً إلى عدم اليتهؤ أو التكيف على الوجه الصحيح ، ومن ثم نخرج عن النص الذي نحن بصده ، وينشأ عن ذلك تفاعلات لا تمت له بأدنى صلة ، فهي من وحي خيالنا، واستجابة لرغباتنا ونزواتنا .

كما أن الناقد الذي تشعبت ألوان معارفه وتخطت حدود النقد الأدبي وتطرق إلى غيره من الفنون المختلفة ، هو أقدر من غيره على وضع النصوص في مكانها الملائم ، وهو أقدر أيضاً على توجيه انتباهنا نحو نواحي المتعة الأدبية والفنية التي تحدث عنها إليوت سالفاً . أما الناقد الذي يقتصر على الأدب وحده دون تعرضه إلى غيره من الفنون لا بد وأن يكون نقده أميل إلى التجريد الخالص . وهذا هو الحال أيضاً في الشعر ، فالشاعر الذي يقتصر على أسلوب شعري معين لا بد وأن يكون شاعراً أجوفاً . فلقد لعبت الخبرات المترامية والأفكار المتراحمة والاتجاهات المتشعبة أدواراً عظيمة في إخصاب الشعر وإثراء مكوناته وميادينه . فحيط النقد إذن لا يتصل بالجزرات ، وحصيلته لا تعتمد على الأقوال المأثورة ، كما أن خلاصته في آخر الأمر لم تكن منتجاً من القوانين الجافة الصارمة والقواعد المتداولة التي عنى عليها الزمن فأصبحت بالية رثة لا تغني ولا تسمن من جوع . إن النقد الحلي هو الذي يعبر عن الحياة في تكاملها بمبادئها وخبراتها ، وهو المرآة الصادقة لمعترك الحياة بمشكلاتها وتعقيد أمورها . وعلينا أن ندرك أن النقد الأدبي خاضع لعوامل شتى تاريخية واجتماعية وخلقية ، وأن هذه العوامل وهي متفرقة لا تفي بمهمة التقييم الصحيح . إنها ترشدنا إلى اتجاهات هذه الإشعاعات حيث تتجمع في بؤرة واحدة تختلط فيها الفكرة بالوجدان وتتحدها في أصالة وعمق .

وعلى ذلك فلقد تبلورت مهمة الناقد في تتبع هذه الإشاعات وتبيان تجمعاتها للقارئ الذي قد يعجز عن الوصول إليها إلا بعد جهد وعناء . وتنحصر مهمته أيضاً في إزاحة ما قد يكتنف النصوص من غموض وإبهام لتبدو جلية واضحة حتى يتمكن القارئ من فهمها والتفاعل معها على الوجه الصحيح . وهذا مما يتطلب من القارئ أيضاً فهماً عميقاً وإحساساً صادقاً وقدرة على التذوق في غير تحيز .

\* \* \*

مراحل إليوت النقدية وميزاتها وخصائصها :

على ذلك يمكننا أن نقسم المراحل النقدية التي مر بها إليوت إلى ثلاث مراحل : الأولى وتنتهى في سنة ١٩٢٨ وفيها نجده يضع التعاريف والأسس المبدئية العامة التي لازمته في الفترتين التاليتين . وهذه المرحلة خاصة بمبادئ النقد بوجه عام والموضوعية الفنية على وجه التخصيص بما في ذلك فكرته عن التقاليد والعمليات الإبداعية في الخلق الفني . ويدخل في نطاق هذه المرحلة مقالاته عن « التقاليد والهبة الفردية » (١٩١٧) و « البيان والدراما الشعرية » (١٩١٩) و « هاملت » ونظريته عن المعادل الموضوعي (١٩١٩) وكتابه عن « الغابة المقلمة أو مقالات في الشعر والنقد » (١٩٢٠) ثم مقالاته عن « الشعراء الميتافيزيقيين » (١٩٢١) و « جون درايدن » (١٩٢٢) و « وظيفة النقد » (١٩٢٣) و « حوار عن الشعر المسرحي » (١٩٢٨) .

أما المرحلة الثانية فتمتد إلى سنة ١٩٣٤ ، وفي هذه المرحلة تتبلور آراء إليوت عن النقد وصلته بالاتجاهات الاجتماعية والتيارات الفكرية المختلفة . وفي هذه الفترة يظهر لنا مقاله الرائع عن « دانتي » (١٩٢٩) ثم مقالاته عن « الخبرة والتقاليد في الأدب المعاصر »<sup>(١)</sup> (١٩٢٩) و « المقالات المختارة » (١٩٣٢) وكتابه عن « أهمية الشعر والنقد » (١٩٣٣) وكتاب آخر أطلق عليه « نحو

آلهة غرباء» (١) (١٩٣٤) .

أما المرحلة الأخيرة التي تبدأ بكتابه عن « المقالات القديمة والحديثة » (٢) (١٩٣٦) وتستمر إلى وفاته ، فهي اختلاط وامتداد للمرحلتين السابقتين ، وفيها إرساء للعالم النقد السالفة ، ونمو وازدهار لآراء لم تكن قد اختمرت من قبل . ففي سنة ١٩٣٩ يظهر لنا كتابه عن « فكرة المجتمع المسيحي » (٣) وفي سنة ١٩٤١ كتاب آخر عن « وجهات نظر » (٤) ، وثالث في سنة ١٩٤٢ عن « موسيقى الشعر » (٥) ورابع في سنة ١٩٤٥ عن « ما هو الكلاسيكي ؟ » وفي سنة ١٩٤٨ أصدر كتابا عن « ملاحظات في تعريف الثقافة » ، وفي سنة ١٩٥٣ كتابا آخر عن « الأصوات الثلاث للشعر » (٦) ثم محاضرة عن « حدود النقد » وقد ألقاها في جامعة مانسوتا في الثلاثين من أبريل سنة ١٩٥٦ .

من ذلك نتبين أن آراء إليوت في الفترة الأولى كانت مقصورة على الأدب الإليزابيثي وعن كتاب المسرح في عصر الملكة إليزابيث على وجه الخصوص ، ثم أبحاثه عن الشعر الميتافيزيقي التي نجد لها صدى قوياً في شعره الذي كتبه في هذه الفترة وخاصة في قصيدة « الأرض الخراب » . ففي هذه القصيدة نجد امتداداً وتفاعلاً لنفس « التكنيك » الذي برع فيه شعراء المدرسة الميتافيزيقية في القرن السابع عشر وهو التصوير الغريب للرؤيا وربط الاتجاهات المتباعدة بعضها ببعض وجمعها حول محور واحد بالرغم من نفورها في منشأها ومبداها . ويتضح لنا هذا التقارب بين شعره ونقله في إعلانه في محاضراته عن « حدود النقد » أن آراءه النقدية ما هي إلا منتجاً لمراحله التجريبية في ميدان الشعر ،

“After Strange Gods”.

“Essays Ancient and Modern”.

“The Idea of a Christian Society”.

“Points of View”.

“The Music of Poetry”.

“The Three Voices of Poetry”.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

فإعجابه بالمدرسة الميتافيزيقية قد انعكس على الأشعار التي كتبها في عشرينات هذا القرن . ومع أن هذا الإعجاب قد لازمه طيلة حياته إلا أنه أضاف إليه عدة اتجاهات بعد ذلك ومعظمها اتجاهات فلسفية وتصوفية كما نتبين في مقاله عن « دانتى » الذى أصدره في كتيب خاص .

فلقد اهتم إليوت بشعر دانتى واقتبس من « الكوميديا الإلهية » عدة مقتطفات نسجها في ثنايا قصائده « كالأرض الخراب » و « رماد الأربعاء » و « الرباعيات الأربع » وكلها تدين بالولاء والتقدير لعبقرية الشاعر الإيطالى الكبير . ويتسم هذا التقدير فى معظم الأحيان بطابع الحماس وهو ما نلمسه فى ثنايا كتيبه عن دانتى منذ أول وهلة .

وأعقب ذلك محاولته لإرساء بعض القيم الاجتماعية والحلقية فى الأربعينات كما يتضح فى « ملاحظاته عن تعريف الثقافة » مبينا لنا كيف أن هذه القيم تنعكس على التيارات الفكرية للشعوب المختلفة وهى التى تؤثر بدورها على أساليب حياتهم . ثم انتقل فى الخمسينات للحديث عن الشعر المسرحى ويرجع هذا إلى اهتمامه بكتاب المسرح فى العصر الإليزابيثى .